مفاتيح الاستقرار و بناء الدولة (الهوية السورية بين الانتماء و التنوع)

في هذا المقال، سنقرأ سوريا من خلال بنية الهوية والانتماء، مستعرضين الأمثلة التاريخية والمعاصرة، لفهم كيف تشكل القيم والممارسات الثقافية والتشابكات الإثنية فرص الاستقرار أو تحدياته. الهدف ليس سرد الأحداث، بل استكشاف البنية الداخلية للمجتمع وعلاقاتها بالسياسة والاستقرار.

مقدمة

الدول بشكل عام هي عبارة عن تكتلات بشرية تجمعها القواسم المشتركة، و رغم اختلاف الأعراق و الإثنيات نجد أن تلك الدول تعمل على تقوية نسيجها الاجتماعي لصالح الدولة و لصالح الكيان ،أنظمة لا تفرق بين كل الأقطاب ، بل تسعى لتحقيق العدالة بينهم قدر الإمكان ، فتسري القوانين على الجميع بالتساوي، و يخضع الجميع لها ، و لهؤلاء الأفراد حقوق تحافظ عليها تلك الدول .

من هذا المنطلق نجد أن سوريا ليست مجرد حدود أو حكومة، بل هي نسيج من الهويات والانتماءات والقيم. داخل هذا النسيج تتقاطع الأعراق والطوائف والمذاهب، ما يؤثر مباشرة على استقرار الدولة وقدرتها على إدارة المجتمع.

الهوية السورية ليست مجرد جنسية، بل هي بنية متكاملة من الرموز والانتماءات والممارسات الثقافية والاجتماعية.

و علينا فهم هذه الهوية بشكل أساسي لتفسير قدرة الدولة على الاستقرار وإدارة المجتمع، خصوصًا في سياق التحديات الداخلية والإقليمية.

1 ما بين الانتماء و الهوية تطرح الأسئلة:

الانتماء إلى أرض ما و اعتبارها وطناً عليه التزامات و يشكّل قوةً رابطة بين المجتمع والدولة.

و الهوية السورية تشمل الهوية الوطنية، الثقافية، والدينية/المذهبية، و ليس كل من حمل تلك الهوية كان مخلصاً لها بل لا بد من ترابطها مع الانتماء ، فهي علاقة ترابط و تشابك و كل من يفرط بإحداها كأنه فرط بالثانية.

اختلافات الهوية إذا لم تُدار قد تؤدي إلى تصدعات في الشرعية الاجتماعية والسياسية.

2 القيم والممارسات الثقافية :

القيم الاجتماعية و الأخلاقية التي يبحث عنها الجميع لا بد من احترامها من باقي المكونات ، فهي الأساس لبنيان سليم قوي يدفع الجميع للتعاضد و التماسك و عند فقدانها يبدأ الشرخ في المجتمع و يبدأ التفسخ المجتمعي فالبحث عن : العدالة، المساواة، الأمان، التعاون. هدف الجميع .

كذلك فإن الممارسات الثقافية: الاحتفالات والمهرجانات الوطنية ، تعبير عن هذا التنوع و النسيج المتماسك. إن التعليم والأدب و الثقافة المتبادلة دون شطط او تجني هي التي تعزز رؤية مشتركة.

يرافق هذا خطاب إعلامي واعٍ يشكّل إطارًا مشتركًا لفهم السياسة والمجتمع.

3 العلاقات الاجتماعية والتشابكات الإثنية والعرقية :

المجتمع السوري متعدد الأعراق والطوائف: العرب، الأكراد، السريان، الأرمن، والطوائف الدينية المتنوعة. و إن كان العرب السنة يشكلون النسبة الكبيرة و التي تتجاوز 80% من مجموع الشعب السوري ،هذه التشابكات الإثنية والعرقية تشكل بنية معقدة، ويجب إدارتها بحكمة لضمان الاستقرار.

فبناء العلاقات بين المكونات المختلفة تحدد مدى قدرة الدولة على الحكم والشرعية الاجتماعية. رغم أن المجتمعات الغربية تفرض في دساتيرها رؤية محددة و تحاول فرض رؤية أخرى على الدول .

أمثلة تاريخية :

الإمبراطورية العثمانية (1516 – 1918):

سوريا كانت جزءًا من ولاية الشام، حيث عاش العرب، الأكراد، السريان، الأرمن، والدروز ضمن نظام * Millet* الذي أعطى كل طائفة بعض الحكم الذاتي.

هذا التاريخ يوضح تعدد الهويات والممارسات الثقافية في إطار حكم مركزي.

فترة الانتداب الفرنسي (1920 – 1946):

الرغبة بتقسيم سوريا إلى دويلات صغيرة مثل دولة جبل الدروز ودولة العلويين، الأمر الذي عزز الفوارق الطائفية والإثنية وأظهر أهمية إدارة التنوع الثقافي لضمان الاستقرار.

4 الهوية والاستقرار

إن قدرة الدولة على توليفة خاصة بمجتمعها يضمن لها الاستمرارية و بناء قاعدة مجتمعية صلبة فلا تراعي مجموعة ما على حساب أخرى ضمن حدود القانون و الدستور و تضع القوانين الناظمة الهادفة لبناء الاستقرار ، إن القدرة على الإصلاح والتحول تتعلق بمدى تماسك البنية الاجتماعية والثقافية.

ومن المتعارف عليه أن الدولة القوية داخليًا المتماسكة مجتمعياً هي التي تستطيع مواجهة التحديات الخارجية بفاعلية.

خاتمة

الهوية السورية والاستقرار الاجتماعي والسياسي مرتبطان ارتباطًا وثيقًا. إن أي تحليل للسياسة السورية يجب أن يأخذ في الاعتبار البنية الثقافية والاجتماعية، الانتماءات المتعددة، والتشابكات الإثنية والعرقية لفهم قدرة الدولة على اتخاذ القرارات الاستراتيجية وضمان استمراريتها.

أمثلة تاريخية

- **الحكم العلوي بعد الاستقلال (1963 – 2011):**

ظهور حزب البعث كمحاولة لإعادة بناء الهوية الوطنية الموحدة عبر التركيز على الهوية العربية والاشتراكية، خلال فترة حكم حزب البعث (1963–2011)، تبلورت الهوية الوطنية السورية في إطار أيديولوجي قائم على العروبة والاشتراكية. غير أن التمثيل السياسي لمختلف المكونات لم يكن متوازنًا، مما أدى إلى بروز شعور بالتمييز لدى بعض الفئات. ورغم محاولات الدمج الرمزي، إلا أن المشاركة الفعلية في صنع القرار ظلت محدودة، ما أثر في ترسيخ مفهوم الانتماء الوطني الحقيقي.هذا الدمج كان لإعطاء بعداً مجتمعياً و ليس للمشاركة الحقيقية في إدارة مؤسسات الدولة و استقرار بنيانها ،فكان حكماً أحادي الجانب هشّم من خلاله البنية المجتمعية السابقة للدولة السورية و جعل الانتماء له هو أساس بقاء الدولة و ليس الانتماء للوطن ،

2 أمثلة معاصرة

- **الثورة السورية (2011 – الآن):**

إن التصدعات الطائفية والإثنية بين العرب السنة، العلويين، الأكراد، الدروز هي التي بنيت في عهد الحكم العلوي ، كان حزب البعث واجهة لا أكثر ، فكان لا بد من هدم كل عائق و ربط الانتماء للوطن بالهوية الحقيقية ، هذا الارتباط الذي يعكس التضحية و الدفاع عن الحقوق.